

## مسألة التقليد والتجديد في التجربة الرستمية

الإمام أفلح بن عبد الوهاب - أنموذجا -

الأستاذة: هدى بنوارة - جامعة باتنة 1

### الملخص:

عالجت هذه الدراسة مسألة التقليد والتجديد في التجربة السياسية والثقافية للدولة الرستمية؛ سيما الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذي حكم هذه الدولة لمدة خمسين عاما، لذلك حاولت أن أبرز تكامل الفعل الثقافي والسياسي في تجربته، ثم بيان طرحه النظري لمسألة التقليد والتجديد، مبرزاً التظاهرات العملية لهذه الثنائية في الواقع الرستمي.

**الكلمات المفتاحية:** (أفلح بن عبد الوهاب، الدولة الرستمية، التقليد، التجديد، الفعل الثقافي، الفعل السياسي)

### Summary:

Abstract This study dealt with the topic of tradition and innovation in the political and cultural experience of the Rustamid dynasty; especially El Imam Aflah bin Abdul Waheb, who governed this dynasty for fifty years. Therefore, I tried to highlight the integration of cultural and political action in his experience. Then i attempted to state his theoretical presentation of tradition and innovation topic stressing the practical "aspects" of this bilateralism in the Rustamid reality.

### Keywords:

(Aflah bin Abd Waheb - Rustamiddynasty - tradition - innovation - political - cultural)

## أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في كونها محاولة لبيان البعد التكاملي لحضور ثنائية التقليد والتجديد في التجربة الواحدة، ذلك إذا انطلقنا من مُسَلِّمة مؤداها أن التقليد يرتبط بالحقائق الجوهرية الثابتة، بينما التجديد يشمل بعض القضايا العارضة المتغيرة، فهذه الفكرة النظرية تحققت في مصداق عملي يتمثل في تجربة الدولة الرستمية<sup>1</sup> التي جسدت مبدأ التوافقية المعقولة بين التقليد والتجديد.

## إشكالية الدراسة:<sup>2</sup>

تتعلق إشكالية هذه الدراسة من كون الإنسان موزعا بين حركتين؛ إحداهما تتجه نحو المحافظة على كل ما هو قديم، ليس على مستوى الذاكرة فحسب، بل على مستوى الحضور والتوظيف في اللحظة الراهنة، والثانية تبحث وتتطلع إلى كل ما هو جديد إلى حد التناكر لكل ما هو تراثي وأصيل، لذلك هنالك صراع دائم بين التقليد والتجديد سببه التطرف الذي قد تتطرق منه الحركتان، مع أن الأصل فيهما التكامل لا التدافع، وعليه تطرح الدراسة جملة

<sup>1</sup> الدولة الرستمية نسبة إلى عبد الرحمن بن رستم فارسي الأصل، أول مؤسس لدولة إسلامية جزائرية مستقلة، وفق المذهب الإباضي، تحت إشراف وإدارة رئيسها الأعلى الملقب بالإمام، ويتعين الإمام في منصبه بالانتخاب والكفاءة، أو بالعهد إليه من سلفه، وله مستشارون ومحتسبون وأمناء بيت المال، وللقاضي السلطة المطلقة في تنفيذ الأحكام الشرعية، وهو في الغالب يكون من غير أهل البلد ليهابه الناس، ونظام الحكم عندهم خاضع لهيئة العزابة أو (عَزَّابِنْ) وهو صيغة جمع بربري مفردة (عَزَّاب) وتعريبه العزَّابة، نسبة إلى العزوبة عن الدنيا والإعراض عنها، والانقطاع إلى أمور الدين والأخرة (الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، دار الأمة للطباعة والنشر الجزائر، د ط، ت 2014، ج1، ص 225).

تساؤلات منها: ما طبيعة التصور الرسمي للتقليد، وما نظرهم إلى التجديد؟ وكيف تمكنوا من تحقيق مبدأ التوافقية المعقولة والمشروعة بين التقليد والتجديد انطلاقاً من تصوراتهم النظرية لكل منهما؟

### مقدمة:

يمتد التاريخ — بوصفه حركة مستمرة — عبر حلقات متواصلة، لا يمكن فصل أي منها عن الأخرى، وكل حلقة تعد في حقيقتها محطة أو إطاراً زمنياً يستوعب الواقع الروحي والفكري والسياسي والاجتماعي ... للجماعة البشرية قاطبة، أو لمجموعة بشرية بعينها انتظمت في حيز مكاني محدود، أو في انتماء ثقافي له هويته المرتبطة بالانتماء القومي أو العرقي بكل ما يستدعيه ذلك من زخم تاريخي أو خصوصيات اجتماعية كالعادات والتقاليد، ويتشكل هذا الواقع في صورة أحداث ناشئة عن تفاعل الإنسان ومحاولة تكيفه مع نوااميس الكون من جهة، ومن جهة ثانية تفاعله مع شركائه في الحياة من بني البشر، ومن هذه الأحداث ما هو وليد اللحظة والراهن؛ يخضع لمقتضيات العصر، وخصوصيات المكان والثقافة، ومنه ما هو نتاج الموروث في شقه الثابت الذي لا يتغير، ومن هذا المنطلق تتشكل ثنائية التقليد والتجديد التي سجلت حضورها في التجربة الثقافية والسياسية للدولة الرستمية؛ سيما الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب.

## أولاً: الإمام أفلح بن عبد الوهاب<sup>1</sup> وتكامل الفعل الثقافي والسياسي:

ظلت علاقة المثقف بالسلطة ملتبسة ومحل جدل عبر العصور، وهي علاقة يشوبها الشك وعدم الثقة، وأحياناً يسودها التدافع والتعارض والتناقض، فهذه الإشكالية تبدو جلية في الصراع التاريخي بين المثقف والسلطة، وهذا ما عبرت عنه كتابات المفكرين والأدباء والمثقفين منذ أقدم العصور، ويكفي أن نستحضر قصة سقراط مع حكام زمانه، حيث ضحى في سبيل الفكرة التي يؤمن بها، رافضاً الخضوع لأوامر السلطان التي لم تكن تتسجم البتة مع فلسفته الأخلاقية وأفكاره اللافتة، ورأيه الحر<sup>2</sup> فالسلطة تسعى دوماً إلى الهيمنة على الثقافة وأدلجتها، وتوجيه العلاقات الفكرية والاجتماعية والسياسية حسب مصالحها، بحيث يتم توظيف النشاط الثقافي وتسخيره بالكيفية التي تخدم مصالح السلطة، وتحقيق هدفها الرئيس المتمثل في صناعة العقل وتشكيل الوجدان، وتوجيه الرأي العام نحو رؤية نمطية أحادية تقود في نهاية الأمر إلى إقصاء المختلف وإلغاء وجوده. فيتحول المثقف وفق هذا المنطق إلى داعية مسلوب الوعي والإرادة، يحرص على خدمة مصالح السلطة التي

<sup>1</sup> أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، أبو سعيد ثالث الأئمة الرستميين من الإباضية في مدينة تيهرت، وأطول أئمة هذه الدولة مدة (50 سنة) في الملك ... وكان داهية حازماً فقيهاً كاتباً شاعراً اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته؛ بين قائل: إنه توفي سنة 258 هـ وقائل بوفاته سنة 248 هـ (ينظر: الباروني سليمان بن عبدالله النفوسي، الأزهار اليباضية في أئمة وملوك الإباضية، مطبعة الأزهار البارونية القاهرة (مصر)، دط، دت، ج2، ص 163. وينظر: بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، جمعية التراث لقرارة الجزائر، دط، دت، هامش ص 120، 121).

<sup>2</sup> محمد الشيخ، المثقف والسلطة (دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر) دار الطليعة بيروت (لبنان)، ط1، ت 1991، ص 11.

تصبح بذلك منتجة للثقافة وللمثقف أيضا، فيكون المثقف بذلك موظفا، منقادا مطيعا، بدل أن يكون مفكرا متحررا ومستقلا في رؤيته، وفي آرائه وموقفه. وبالنظر إلى ما سبق نتساءل عن تجربة الإمام أفلاح بن عبد الوهاب بوصفه عالما وفقهيا ومثقفا، خاض معترك السياسة، وعاش تجربة الحاكمية، فهل تحقق له التوفيق بين مقتضيات السياسة بحساباتها الدنيوية البراغماتية المعقدة، ومتطلبات الأعلمية والفقاهة والثقافة بمستلزماتها الأخلاقية والإنسانية فضلا عن الضوابط الشرعية؟ وهل تمكن من المزاجية بين الممارسة السياسية والثقافية بما يترجم ذلك في حركة تكاملية لا تنتصر لمشروع السلطة على حساب مشروع المثقف، بقدر ما تنتصر لمبدأ التكامل الذي لا يلغي الكينونة الذاتية لكل منهما، وبخاصة إذا انطلق المشروعان من مرجعية ورؤية واحدة، لتحقيق أهداف مشتركة.

وللإجابة عن ذلك نشير إلى أن تجربة الإمام أفلاح بوصفه حاكما ومثقفا لا تمثل استثناء في عموم التجربة الرستمية؛ فالدولة الرستمية وانطلاقا من عاصمتها تيهرت\* كان لها دور بارز في الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط، وكانت لها الريادة في حمل لواء الحضارة والعلم في شمال إفريقيا بعد القيروان<sup>1</sup>، فحكاه هذه الدولة كانت لا تتم تركيتهم لتولي هذا المنصب إلا

<sup>1</sup> ينظر: ابن تاويت الطنجي، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات، مدريد (إسبانيا)، م5، ع1-2، ص126. نقلا عن بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية، ص261.

إذا كانوا من أبرز أهل العلم<sup>1</sup>، لذلك لا غرو إنْ عَلِمْنَا أن الإمام أفلح وقبل أن يتولى الإمامة سنة 208هـ كانت له مجالس علم يأخذ عنه الطلبة في فنون شتى من العلم، فهو فقيه، ومحدث، ومتكلم، ورياضي، ولغوي، وشاعر...<sup>2</sup> استحضر هذا الرصيد المعرفي والثقافي في تجربته السياسية حين تولى الإمامة، فأبدى اهتماما واضحا بالثقافة والتعليم، لذلك كان يحث على طلب العلم، وله قصيدة مطولة تمجد العلم ويشيد فيها بالعلماء، ويذم فيها الجهل والجهلة ومما جاء فيها:<sup>3</sup>

العلم أبقى لأهل العلم آثارا      يُريك أشخاصهم روحا وأبكارا  
حيّ وإن مات ذو علم وذو ورع      ما مات عبدٌ قضى من ذاك أو طارا  
وذو حياة على جهل ومنقصة      كميت قد ثوى في الرّمس أعصارا  
لله عصابة أهل العلم إن لهم      فضلا على الناس غيّا وحضارا  
العلم علم كفى بالعلم مكرمة      والجهل جهل كفى بالجهل إنبارا  
واللافت أيضا أن الدولة الرستمية كان تتمتع بالسلطة الروحية والمذهبية، التي يضاف إليها السيرة الحسنة لأئمتها، لذلك كانت السلطة

<sup>1</sup>الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينة (الجزائر)، دط، ت 1974م، ج 1، ص 56، 57.

• تبهرت كلمة بربرية مؤنثة تعني اللبوة، ومذكرها (أر) وهو الأسد.  
<sup>2</sup>المرجع نفسه، ج 1، ص 77 ج 2، ص 320.

وينظر: الباروني ج 2، ص 189، 190.  
وينظر: الوارجلاني، العدل والإنصاف (مخطوط) ج 2، دون ترقيم للصفحات، نقلا عن بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية، ص 269.

<sup>3</sup> ينظر: الباروني، الأزهار الرياضية، ج 2، ص 189، 190.  
• نفوسة منطقة جبلية في غرب ليبيا، كانت تابعة للدولة الرستمية، وهي إلى يومنا هذا منطقة يقطنها المسلمون أتباع المذهب الإباضي.

الروحانية لهذه الدولة أقوى من سلطة السيف، فالولاء المذهبي للإمام يعد ضماناً تغني عن الخيار العسكري، لذلك كان أئمة الدولة الرستمية لا يستسيغون اللجوء إلى القوة العسكرية إلا للضرورة القصوى، كما كان الحال في فتنة خلف بن السمع الذي أراد أن يتولى شؤون نفوسة\* بغير إذن الإمام، فأملهوه طويلاً ولما أصر على الانشقاق تصدوا له وحاربوه، وكذلك الحال بالنسبة إلى مدينة العباسية التي بناها الأمير الأغلب على مقربة من تيهرت، فقام الإمام أفلح بن عبد الوهاب بهدمها<sup>1</sup> ومقابل هذا الحزم السياسي والعسكري في مواقف تستدعي الحزم حفاظاً على كيان هذه الدولة، نجد المرونة والحوار العلمي مع المخالفين، ومن ذلك الكتب العديدة التي أرسلها أفلح بن عبد الوهاب إلى نفاث بن نصر، يعظه ويحاججه، داعياً إياه إلى التوبة من اعتقاداته الباطلة<sup>2</sup> فقد فتح الرستميون المجال واسعاً أمام حرية الفكر، فلم يضايقوا أحداً، ولم يطاردوا مخالفاً<sup>3</sup> لذلك يمكن القول: إن الدولة الرستمية التي يعد الإمام أفلح أحد أعمدتها – لتوليهِ الإمامة مدة 50 عاماً – كانت تظهر الوجه العسكري والحزم السياسي في المواقف التي تستدعي ذلك وبخاصة تلك التي تهدد وجودها، كما كانت تظهر الوجه الثقافي المحاور الذي يقبل التنوع والتعايش في عالم الأفكار.

<sup>1</sup> ينظر: أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية الجزائر، دط، ت 1979م، ص 83 إلى 89.

<sup>2</sup> الباروني، الأزهار الرياضية، ج2 ص 199 إلى 205.

<sup>3</sup> بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية، ص 333.

## ثانيا: الإمام أفلاح والطرح النظري لمسألة التقليد والتجديد:

في البداية لا بد من الإشارة إلى ملاحظتين أراهما مهمتين:

**الأولى:** هي التأكيد على أن الفكرة لن تجد لها طريقا يُفَعَّلُها ويُحِيلُها حقيقة عملية، إلا إذا كان طرحها في عالم الأفكار والتنظير ناتجا عن حالة تأمل عميق، ومقاربة علمية واقعية تفضي إلى معقولة الفكرة في صحتها وصلاحياتها.

**الثانية:** تتعلق بالأسباب التي دفعتني إلى اختيار الإمام أفلاح بن عبد الوهاب كمصدق عملي جسد في تجربته مبدأ التوافقية المعقولة بين التقليد والتجديد؛ ذلك لأن الرجل جمع بين سلطة الفعلين: الثقافي والسياسي، فهو رجل مثقف صاحب رؤية، يتمتع بقدرة التنظير وإنتاج الأفكار، وفي الوقت ذاته هو رجل سياسة يمتلك زمام السلطة وصناعة القرار، ومن ثم يتمتع بقدرة تفعيل الأفكار، والانتقال بها من عالم التنظير، إلى عالم التنفيذ والتمكين، ولعل فترة حكمه التي استغرقت خمسة عقود من الزمن، كانت عاملا مساعدا ومشجعا لاستمرار مشروع التنظير والتمكين لفترة تطيل عمر التجربة، وتمنحها من النضج ما يكفيها ويمحصها، فضلا عن توفير فرص المتابعة والتفعيل.

### 01 - دعوته إلى التقليد:

ينطلق التقليد والارتباط بالمنجزات والمكتسبات السابقة من دوافع نفسية ذاتية، وأخرى واقعية موضوعية؛ أما الدافع الذاتي فيتمثل أساسا في الشعور بالاطمئنان والثقة بكل طريق، أو نمط حياة، أو تجربة سابقة أثبتت جدواها،

أما الدافع الموضوعي فيتمثل في الامتثال الجماعي الطوعي الواعي لمتطلبات القيم الموروثة والمتداولة بين أبناء المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة، ناهيك عن نمط الحياة السائد في المجتمع الذي ننتمي إليه قُطُريا وقوميا وحضاريا.

من هذا المنطلق يمكن أن نقرأ ما كان يدعو إليه الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب في أكثر من موقف وموضع، كدعوته إلى ضرورة التمسك بسيرة الأسلاف، في إحدى رسائله التي وجهها إلى رعيته جاء فيها: "... وأنتم على يقين من سنة أسلافكم، ولا يتبع الهدى إلا في مواقفهم ولا يخاف العاقل الهلاك إلا في خلافهم ..."<sup>1</sup> فالدعوة هنا إلى التقليد كانت صريحة واضحة بتوظيفه عبارة: **(سنة أسلافكم)** وما توحى به من قدسية ورمزية تنظر إلى تجارب السابقين على أنها نموذج يُحتذى، وأثر يُقتفى، قد يكون هذا النموذج القدوة هو الرسول – صلى الله عليه وسلم – وربما صحابته الكرام، وقد يضاف إليهم من أسس المذهب الإباضي في توجهه الفقهي والكلامي، أو من حقق التمكين السياسي لهذا المذهب بتأسيس أول دولة له؛ هي الدولة الرستمية، وعليه فالدعوة إلى التقليد مطلقا وجعل ذلك مرتبطا بالنجاة أو الهلاك لهما ما يبررها حين ترتبط بمقام النبوة المعصومة، لكن يصعب تبريرها حين يتعلق الأمر بالتجربة البشرية التي تتراوح في طبيعتها بين الإخفاق والنجاح.

فالدعوة إلى التقليد كانت بإلحاح لافت، نلاحظه في تأكيده على أن سنة السلف يجب أن تؤخذ مأخذ اليقين الذي لا يتسرب إليه الريب **(... وأنتم على**

<sup>1</sup> لينظر: الباروني، الأزهار الرياضية، ج 2، ص 258.

**يقين من ...)** ولتثبيت هذا اليقين أردف العبارة الأولى بأسلوبين متتابعين من أساليب القصر؛ حيث جعل اتباع الهدى مقتصرًا ومحصورًا في موافقة السلف دون سواهم، ثم جعل الهلاك محصورًا في خلافهم والخروج عن نهجهم.

وقد أكد هذه الدعوة بالإصرار ذاته في وصية له تقدم بها إلى من سار تحت لوائه من المسلمين فقال: "وعليكم بتقوى الله، واتباع آثار سلفكم، فقد سنوا لكم الهدى، وأوضحوا لكم طريق الحق، وحملوا الحق، وحملوكم على المنهاج ..."<sup>1</sup> فهذا القول بدوره لا يخلو من التأكيد على ضرورة الانقياد للسلف واتباع نهجهم وآثارهم، ويتضح ذلك في الإطناب الذي كان يروم به جعل النصيحة متمكنة في القلوب، راسخة في الأذهان؛ إذ بإمكانه أن يكتفي بهذه العبارة: **(واتباع آثار سلفكم)** لكن حرصه على الإقناع ببيان قيمة الفكرة وأهميتها جعله يردف هذه العبارة بثلاث عبارات متتابعة، وكلها تخدم وتحمل معنى واحدًا، وإن اختلفت الصيغ: **(فقد سنوا لكم الهدى) (وأوضحوا لكم طريق الحق) (وحملوكم على المنهاج)**

وعلى العموم تكررت دعوة الإمام أفلح إلى التقليد في الكثير من كتاباته النثرية<sup>2</sup> وبقدر ما تبدو الدعوة في ظاهرها مفتوحة تشمل التوجيه إلى مآثر عموم السلف؛ لأنها لم تعين شخصًا بعينه أو فئة بعينها، فإنها لم تكن مفتوحة من حيث تحديد موضوع التقليد؛ والمتمثل في اقتفاء أثر كل صالح يأخذ بأيدي

<sup>1</sup> الباروني، الأزهار الرياضية، ج 2، ص 258.

<sup>2</sup> ينظر: المرجع نفسه، ج 2، ص 257، 258، 259.

المخاطبين إلى طريق الحق والهداية، وعليه تكون الدعوة إلى تقليد السلف مشروطة ضمناً بمعيار الهداية والحق، وعليه يكون التقليد الذي دعا إليه الإمام أفلح مرتبطاً بحقيقة جوهرية ثابتة ليست من متغيرات الحياة.

## 02 - الدعوة إلى التجديد:

لا شك أن مفهوم التجديد مناقض لمفهوم التقليد الذي يقوم على محاكاة النماذج، أو التجارب السابقة اعتقاداً بمثالياتها ونجاحاتها، لذلك يعد "مفهوم التجديد من أكثر المفاهيم التي تتازعها التيارات الثقافية والفكرية المختلفة، وقد انعكس هذا التنازع على المفهوم ذاته من حيث معناه ودلالاته، وواقعياً يصل الباحثون لمُسلّمة هي أن التجديد - على المستوى النظامي والحركي - قد تُحقق أهم جهوده نظراً لعدم وضوح التأسيس الفكري والمنهجي لعملية التجديد... ويمكن القول: إن التجديد في الأصل ... يبعث في الذهن تصوراً تجتمع فيه ثلاثة معانٍ متصلة:

أ - أن الشيء المجدد قد كان في أول الأمر موجوداً وفائماً وللناس به عهد.

ب - أن هذا الشيء أتت عليه الأيام فأصابه البلى وصار قديماً .

ج - أن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> سيف الدين عبد الفتاح، التجديد،

[http://www.arabphilosophers.com/Arabic/adiscourse/aarabic/arabic\\_articles/ARenaissance/Renovation.htm](http://www.arabphilosophers.com/Arabic/adiscourse/aarabic/arabic_articles/ARenaissance/Renovation.htm)

فالتجديد لا يعني إيجاد شيء لم يكن موجودا، بل هو إضافة جديدة، أو إنتاج جديد لما هو موجود، يراعى فيه ظروف العصر، ومقتضى الحال، ولتوضيح هذه الفكرة في تجربة الإمام أفلح، لنا أن نستأنس ببعض ما ورد عنه، ومن ذلك قوله: (... وجعل لكل زمان رجالا تسند إليهم الأمور، ويأمرون فيطاع أمرهم، ويدعون فيجاب ندائهم، وأنتم رجال زمانكم، والكبراء من أهل موضعكم، فأعرضوا أعمالكم على أعمال من تقدم قبلكم من سلفكم ... فإن كانت أعمالكم موافقة لأعمالهم فالله على ذلك محمود ...) <sup>1</sup>

فالعبرة التي جاء فيها قوله: (... وجعل لكل زمان رجالا...) فيها تصريح بأن الزمان الذي يعني في حقيقته السير المطرد في الطبيعة الكونية المعبرة عن حركة الإنسان في الوجود، يمكن تقسيمه إلى محطات نسبية نعتبر عنها بالعهد، أو العصر أو الفترة، وذلك تبعا لقصر المدة الزمنية أو طولها، ناهيك عما يمكن أن تستوعبه من أحداث مفصلية في تاريخ البشرية تصنع التمايز والفوارق بين هذه المحطات الزمنية النسبية، فيكون لكل فترة ما يميزها عما سبقها أو عما يلحقها من المحطات الزمنية الأخرى، ومن ثم وجب أن يكون لكل محطة من يفقه واقعها، ويدرك خصوصيتها ليحدد وجهته ومساره فيها، دون أن يخضع — بطبيعة الحال — في مساره ذاك لرواسب الماضي خضوعا مطلقا، أو يتجرد منها تجردا كليا، بل عليه أن يلتزم معيار الثابت والمتغير في حركته، وقد استوعب الإمام أفلح هذه السنة الكونية لذلك

<sup>1</sup> الباروني، الأزهار الرياضية، ج2، ص 273.

قال: (... وأنتم رجال زمانكم، والكبراء من أهل موضعكم، فأعرضوا أعمالكم على أعمال من تقدم قبلكم من سلفكم ...).

ومما ورد أيضا عن الإمام أفلح في مسألة التوافق بين التجديد والتقليد قوله: (... وعليكم معاشر المسلمين باتباع الماضين من أسلافكم، والمتقدمين من أئمتكم الصالحين...)<sup>1</sup>

فالدعوة إلى التوافقية بين التقليد والتجديد تصدّرها اسم فعل الأمر (عليكم) الذي يدل على أن هذه الدعوة على سبيل الإلزام والوجوب؛ فالمخاطبون ملزمون بأن ينهلوا من تجارب الأسلاف والتأسي بسيرهم، وملزمون أيضا باتباع المتقدمين من الأئمة الصالحين، والفرد البسيط ليس له الحق في الاندفاع نحو كل أمر مستجد إلا بالقدر وفي الأطر التي يحددها الأئمة المتقدمون الصالحون، الذين يأخذون بأيدي العامة من الناس إلى حيث ضمانته النجاة من عواقب القصور في التفكير، أو عواقب الاستسلام لحظوظ النفس وغلبة الهوى.

### **ثالثا: الإمام أفلح والتمكين العملي المتكامل لثنائية التقليد والتجديد:**

من المعلوم أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب مارس الحاكمية لمدة خمسين (50) عاما في دولة عَمَرَتْ مئة وستا وثلاثين (136) عاما، مما يعني أن فترة حكمه غطت أكثر من ثلث المدة التي استغرقها قيام الدولة الرستمية، وعليه لا مناص من التأكيد أن للإمام أفلح دورا بارزا فيما تحقق لهذه الدولة من

<sup>1</sup> راجع بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى عين مليلة (الجزائر)، ط3، ت 2000م، ص 103.

منجزات، تكاملت فيها روافد الماضي مع مستجدات العصر ومتطلباته، لذلك سأتناول في هذا العنصر ثنائية التقليد والتجديد كمظهر عام ميز الدولة الرستمية التي يعد الإمام أفلح من أطول حكامها مدة في الحكم، وأكثرهم تأثيرا وتحقيقا للإنجازات السياسية، والاقتصادية، والثقافية.

### 01 - مظهرات الأصالة والتقليد في التجربة الرستمية:

يمكن للباحث أن يتوسم أصالة هذه الدولة في تمسك قادتها بمجموعة من الثوابت التي على ضوئها تشكل نظام الحكم، وارتسمت معالم سياسته، وهذه الثوابت منها ما هو مستمد من الوحي (الكتاب والسنة)، ومنها ما يتعلق بالموروث الإباضي؛ كمذهب له رؤيته للحكم وقراءته للتاريخ، فضلا عن اجتهادات رجاله في الفقه، وفي علم الكلام وشتى العلوم والفنون، وهذا ما أكده الكثير من الدارسين؛ فهذا يحي بوعزيز يرى أن نظام الحكم في إمارة الرستميين كان شوريا، يطبق أئمتها أحكام القرآن والسنة<sup>1</sup> وهو ما ذهب إليه عبد الرحمن الجيلالي الذي أكد أن نظام الحكم الرستمي يرتكز "على أساس الكتاب والسنة، حسب ما تؤديه قواعد اجتهاد أئمة المذهب الإباضي، تحت إدارة وإشراف رئيسها الأعلى الملقب بالإمام ..."<sup>2</sup> وقد أكد عثمان الكعاك بدوره أن الإمام كان "لا يُقدّم على أمر من أمور الدين إلا بعد مراجعة الشراة،

<sup>1</sup> يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، دار الطليعة للطباعة والنشر الجزائر، دط، 1995، ص 81.

<sup>2</sup> الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 225.

وهم زعماء المذهب، يستشيرهم ويعمل بما قرروا، له أن يعمل، وإن رأى في ذلك خطأ فحسبه أن يرفع التبعة عن نفسه بإلقاء المسؤولية على عاتقهم<sup>1</sup> وبناء على ما تقدم يمكن القول: إن التسليم بكون المرجعية السياسية، والثقافية لهذه الدولة مستمدة من أصول هوية الأمة؛ معتقدا، وتشريعا، وانتماء، مما يعني التسليم أيضا بأصالة المنظومة الاجتماعية، والتعليمية والثقافية عموما، على اعتبار أن رجل السياسة الذي يمارس الحكم لا يكفي ببسط يد السلطة على الرعية، أو بإدارة شؤون الحكم إدارة آلية على مستوى هياكل الدولة فحسب، بل يسعى إلى تشكيل الوعي الجماعي للمجتمع، وإعداد الأجيال بما يتناسب مع منطلقات الدولة، ومع مشروعاتها الذي يتطلع نحو آفاق مستقبلية تضمن قيمومة الدولة وقوتها، ومن ثم استمرارها المرهون — طبعاً — بتحصيل حكامها المقبولة الاجتماعية، والمشروعية الدينية والسياسية.

## 02 - مظهرات التجديد في التجربة الرستمية:

أبدى الرستميون مرونة واضحة في التكيف مع الحالات الطارئة التي أفرزتها خصوصية المكان المتمثل في طبيعة المنطقة الحاضنة للدولة الرستمية، وخصوصية الزمان المتمثل في السياق التاريخي الذي تأسست في خضمة هذه الدولة، وعليه يمكن القول: إن الرستميين إضافة إلى تمسكهم بأصالتهم حاولوا مواكبة عصرهم، ومسايرة محيطهم من خلال:

<sup>1</sup> الكعك عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، مطبعة العرب تونس، د ط، ت 1344 هـ - 1925 م، ص 180.

## • السعي إلى تحصيل علوم العصر وتجميعها:

لا شك أن الأمة التي تنتشد الرقي الحضاري ومواكبة مستجدات العصر لن يتأتى لها ذلك إلا إذا استوعبت تراثها، واستجمعت علوم عصرها وابتكارات أهلها، ولعل ما يؤكد أن الرستميين قد أدركوا هذه الحقيقة، هي مبادرة الإمام أفلح بن عبد الوهاب المتمثلة في إنفاقه 1000 دينار كان قد أرسلها إلى "إخوانه بالبصرة ليشتروا بها كتباً فاقضى نظرهم أن يشتروا ورقاً، وتطوعوا بالمداد وأجرة النساخ حتى أكملوا ديواناً عظيماً، فبعثوا له أربعين حملاً من الكتب<sup>1</sup> وكان الإمام أفلح أول من تصفح هذه الكتب<sup>2</sup> التي من دون شك كانت وجهتها إلى مكتبة المعصومة التي كانت تحوي آنئذ حوالي ثلاثمائة ألف مجلد<sup>3</sup> كان لها دورها في صياغة المشهد الثقافي للمجتمع الرستمي.

## • التكيف مع خصوصية المكان:

خصوصية المكان لا أعني بها هنا المعطى الجغرافي، إنما المقصود هو المعطى البشري؛ حيث شكل الأمازيغ غالبية السكان للمناطق الخاضعة لسلطة الرستميين، سيما عاصمتهم تيهرت<sup>4</sup> وهذا المعطى بقدر ما هو أصيل من حيث تجذره في المكان، يعد حالة طارئة وجديدة بالنسبة إلى القيادة

<sup>1</sup> الدرجيني، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، ج2، ص 57.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ج2، ص 57.

<sup>3</sup> دبوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة (مصر)، دط،

ت 1383هـ - 1982م، ج3، ص 396م

<sup>4</sup> بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية، ص 342.

الرستمية، التي تعد هي الأخرى حالة وافدة على المنطقة، ومن ثم لم تكن على عهد سابق بالمجتمع الأمازيغي وخصوصيته وتركيبته، ومع ذلك كانوا موفقين في مد جسور التواصل مع أهل المنطقة، والأكثر من ذلك كانوا موفقين في استيعابهم، وإفناع عدد غير قليل منهم بالمذهب الإباضي، ولعل السر في ذلك أن الرستميين هو أسلوبهم اللين الذي ينطلق من مبدأ قبول التنوع والتعايش بين الأجناس واللغات كما تقره الرؤية التوحيدية، لذلك كان الأئمة الرستميون يحرصون مثلا على ترجمة رسائلهم إلى البربرية<sup>1</sup>، بل إن الرستميين شجعوا علماء المذهب الإباضي على التأليف بالبربرية وبخاصة في موضوعي علوم الدين عموما، وفي علم الكلام على وجه الخصوص<sup>2</sup> ومن المجالات التي كانت تستعمل فيها البربرية إلى جانب العربية؛ حلقات الوعظ في المساجد، وذلك تمكينا للأمازيغ على فهم الإسلام<sup>3</sup>.

وبذلك يكون الرستميون قد مكنوا الأمازيغية من أن ترتبط بمضامين جديدة، لتعبر عن ثقافة جديدة مستمدة من تعاليم الإسلام، وفي الوقت ذاته تم التعبير عن المضمون التوحيدي، وعموم المعارف والثقافة الإسلامية بلغة جديدة هي اللغة الأمازيغية، تأكيداً لعالمية الرسالة التي يجب أن تبلغ الجميع، وبلغة الجميع.

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص 344.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 345.

<sup>3</sup> بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية، ص 347.

## الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى جملة نتائج يمكن تلخيصها في جملة نقاط نذكر منها:

01 – إن تجربة الإمام أفلح بن عبد الوهاب بوصفه حاكما ومتقفا، لا تمثل استثناء في عموم التجربة الرستمية، التي كانت لها الريادة في حمل لواء الحضارة والعلم في شمال إفريقيا بعد القيروان.

02 – تعد السلطة الروحية للرستميين على الرعية والأتباع أقوى من سلطة السيف، فالمرجعية الروحية والولاء المذهبي للإمام يعد ضمانا، تغني عن الخيار العسكري في كثير من المواقف.

03 – يمثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب مصداقا عمليا جسد في تجربته مبدأ التوافقية المعقولة والمشروعة بين التقليد والتجديد، فهو مثقف صاحب رؤية وفكرة، وفي الوقت ذاته هو صاحب سلطة وقرار، ومن ثم يتمتع بقدرة تفعيل الأفكار، والانتقال بها من عالم التصور النظري، إلى عالم التنفيذ والتمكين في الواقع العملي.

04 – استغرقت الفترة التي قضاها الإمام أفلح بن عبد الوهاب في الحكم خمسة عقود من الزمن، فكانت عاملا مساعد ومشجعا لاستمرار مشروع التنظير والتمكين لفترة تطيل عمر التجربة وتعمقها، وتثبت أسسها، وتمنحها من النضج ما يكفيها ويمحصها، فضلا عن توفير فرص المتابعة والتفعيل.

05 — دعوة الإمام أفلح بن عبد الوهاب إلى التقليد كانت مفتوحة تروم التوجيه إلى مآثر عموم السلف؛ لأنها لم تعين شخصا بعينه أو فئة بعينها، لكنها لم تكن مفتوحة من حيث تحديد موضوع التقليد، الذي كان مشروطا بضمانة الهداية والحق التي هي من ثوابت الحياة وليست من متغيراتها.

06 — أبدى الرستميون مرونة واضحة في التكيف مع الحالات الطارئة التي أفرزتها خصوصية المكان، المتمثل في طبيعة المنطقة الحاضنة للدولة الرستمية، وخصوصية الزمان المتمثل في السياق التاريخي الذي تأسست في خضمه هذه الدولة.

07 — لقد منح الرستميون اللغة الأمازيغية امتياز الارتباط بمضامين جديدة، لتعبر عن ثقافة جديدة مستمدة من تعاليم الإسلام، وفي الوقت ذاته تم التعبير عن المضمون التوحيدي، وعموم المعارف والثقافة الإسلامية بلغة جديدة هي اللغة الأمازيغية، تأكيدا لعالمية الرسالة التي يجب أن تصل إلى الجميع، وبلغة الجميع.

### قائمة المصادر والمراجع

- 01 — الباروني سليمان بن عبدالله النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، مطبعة الأزهار البارونية القاهرة (مصر)، دط، دت، ج2.
- 02 — بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، جمعية التراث لقرارة الجزائر، دط، دت.
- 03 — ابن تاويت الطنجي، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات، مدريد، م5، ع1-2، نقلا عن بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية.

- 04 – الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، دار الأمة للطباعة والنشر الجزائر، د ط، ت 2014، ج1.
- 05 – دبوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة (مصر)، دط، ت 1383هـ – 1982م، ج3.
- 06 – الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينة (الجزائر)، دط، ت 1974م، ج1.
- 07 – رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى عين مليلة (الجزائر)، ط3، ت 2000م.
- 08 – أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية الجزائر، دط، ت 1979م.
- 09 – سيف الدين عبد الفتاح، التجديد،  
[http://www.arabphilosophers.com/Arabic/adiscourse/aarabic/arabic\\_articles/ARenaissance/Renovation.htm](http://www.arabphilosophers.com/Arabic/adiscourse/aarabic/arabic_articles/ARenaissance/Renovation.htm)
- 10 – الكعاك عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، مطبعة العرب تونس، د ط، ت 1344هـ – 1925م.
- 11 – محمد الشيخ، المثقف والسلطة (دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر) دار الطليعة بيروت (لبنان)، ط1، ت 1991.
- 12 – الوارجلاني، العدل والإنصاف (مخطوط) ج2، دون ترقيم للصفحات، نقلا عن بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية.
- 13 – يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، دار الطليعة للطباعة والنشر الجزائر، دط، ت 1995.